

بمؤتي الحكمة من يصابون يؤمن الحكمة فقد أوتي
خبراً كبيراً وما يؤمنه غير إلا أولو الألباب

الملك
١٣١٥

بمؤتي الحكمة من يصابون يؤمن الحكمة فقد أوتي
خبراً كبيراً وما يؤمنه غير إلا أولو الألباب

﴿ قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوي و « منارا » كمنار الطريق ﴾

﴿ مصر — الجمعة ٢٩ ذي الحجة ١٣٢٦ — ٢٣ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٠٩ ﴾

خطب ودروس

﴿ صاحب المنار ﴾

في هذه الديار ﴿

إن لي في هذه الدنيا وطنين : وطن المنشأ والتربية وهو سورية فاني نشأت
في قرية القلمون المجاورة لطرابلس الشام في ساحل الكورة من لبنان وتعلمت في
طرابلس . ووطن العمل وهو مصر التي أقمت فيها إحدى عشرة سنة أدعو الى
الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي وقرأت الدروس واعمل في بعض الجمعيات .
ولما أقر الله عيوننا معشر العثمانيين بالحكومة الدستورية اشتقت الى زيارة
وطني الأول لرؤية الأهل والأصدقاء وللاختبار حال البلاد بعيد ان اشتدت عليها
﴿ نشرت في العدد ٥٣ من جريدة الاتحاد العثماني البيروتية الصادر في

٢ ذي القعدة سنة ١٣٢٦

وطأة الاستبداد ومساعدة محبي الإصلاح والترقي في التنبه لما يجب ان تترجه
اليه اللهم .

زرت بيروت وطرابلس والقلمون ثم عدت الى بيروت ومنها ذهبت إلى
دمشق الشام فجلست فحمص فطرابلس . وقد أقيمت في أكثر هذه البلاد خطباً
ودروساً وجرى لي مع أهل الفهم والظهور فيها محاورات كثيرة فوقفت على ما أحبت
الوقوف عليه . أما المقاصد التي كان يدور عليها كلامي فهي محصورة فيما يأتي :

(١) وجوب الجمع بين هداية الدين والعلوم المصرية التي عليها مدار نروة
الامة وعزة الدولة ، مع بيان عدم التناقض والتعارض بين دين الاسلام وهذه العلوم
من رياضية وطبيعية واقتصادية

(٢) الاعتماد في هداية الدين على اتباع سيرة السلف الصالح من الصحابة
الكرام والتابعين لهم ومن سار على طريقهم وما طريقهم إلا الاهتداء بالكتاب
العزيز والسنة السنية وقد فصلت ذلك في الخطب والدروس بمطالبة العلماء بأن يعلموا
الناس دينهم كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم المؤمنين به فهديه أفضل الهدى
وطريقه أقصد الطرق . وبيئت ذلك في أسس الدين الثلاثة العقائد والآداب والأعمال
(٣) أما العقائد فبيئت ان الاعتماد على كتب الكلام في تلقينها للعوام

لا يأتي بالفائدة المطلوبة وربما يضرهم ويوقعهم في شكوك وشبهات لا يجدون منها
مخرجاً . ذلك بأنها لم تؤلف الا لحماية العقيدة من شبهات الفلاسفة والمبتدعة كما
بينه حجة الاسلام الغزالي في كتاب (الجلام العوام عن علم الكلام) وفي غيره
من كتبه . وإنما يجب اتباع طريقة القرآن في تلقين المسلمين عقائدهم بالاستدلال
عليها بيديع صنع الله في خلق السموات والأرض وما فيها من البحار والأنهار والجبال
والحيوان والنبات

(٤) وأما الآداب والأخلاق فيصمد في تعليمها على الآيات الصكورية
والأحاديث الشريفة الناهية عن الفواحش والمنكرات ، الآمرة بالمعروف والباقيات

الصالحات ، المنبهة على ما فيها من فوائد الخير ومنافعه في الدنيا والآخرة، وغوائل الشر ومضاره في الدنيا والآخرة — وعلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن اهتدى بهديهم من الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين

(٥) وأما الأعمال كالوضوء والتيمم والصلاة والحج فقد بينت أنه ينبغي أن تعلم بالعمل كما ورد في الأحاديث الصحيحة ومنها حديث « صلوا كما رأيتموني أصلي » وإذا قرأ الإنسان جميع الكتب ولم يتلق الأمور العملية بالتدوية فإنه لا يحنها على أن الأقوال لا يستغنى عنها في كثير من المسائل

ذكرت في عدة دروس وخطب أن هذه الطريقة هي التي يمكن تسميتها في مدة قليلة ترحي فائدتها ويظهر أثرها وأنه من استطاع أن يعلم الناس كلمهم أو بعضهم ما زاد على ذلك من كتب الكلام والفقه وغيرها فليفعل بالطريقة التي قترحها لأن تكون مافعة له بل تكون مسهلة عليه ولكني أرى أن من المتعذر تعميم تعليم هذه الكتب فلنبداً بالمكن الأسهل طريقاً الذي لا يد منه لكل مسلم

(٦) الحث على تأسيس الجمعيات الخيرية لإنشاء المدارس ونشر التعليم الذي يتحقق به المقصد الأول من هذه المقاصد وهو الجمع بين الدين والعلوم ولاعانة المنكوبين والمعوزين عند الحاجة لتكون طبقات الأمة متعاطفة متراحة بمحترم فقيرها غنياً وبرحم كبيرها صغيرها

(٧) الحث على شكر نعمة الدستور بمساعدة جمعية الأتحاد والترقي على اتعام عملها العظيم في داخل البلاد من مراقبة الحكومة لأجل الثقة بالعدل وحسن الإدارة ، ومن بث الآراء والأفكار التي تنفع روح محبة الدستور والمحافظة عليه في قلوب طبقات الأمة المنهنية . وقد خطبت وتكلمت في الاستبداد والدستور والمساواة أكثر من مرة

(٨) تنبيه الأمة إلى ما يجب عليها من محبة الدولة العلية وبذل المستطاع في تأييدها وتعزيز جانبها . وموالاتة الدول التي توالياً ومعاداة الدول التي تعادياها ومجازاة هذه الدول بالاقبال على بضائعها أو بالأعراض عنها حتى تصير الدول تخشى عداوتنا وترجو مودتنا فإنه لا شيء يهيم أوربا من بلادنا مثل رواج مجاوتها فيها . ولما جاءنا

(المناج ١٧م ١١) مقاصد خطب و دروس صاحب المنار . واجبات تحقيق الوحدة ٩٠٧

نبأ ضم النمسا ولاية البوسنة والمهرسك الى أملاكها واعلان البلغار الاستقلال التام دون الدولة العلية وتحدث الناس باحتمال محاربة الدولة للبلغار وأظهر كثير من الشبان التطوع في الحرب بينت في خطاب ألقته في نادي جمعية الأتحاد والترقي بطرابلس وفي خطبة ألقتها امام الكتبة العسكرية في بيروت ان الدولة انما تحتاج الى مساعدة الأمة بلل مال دون تطوع الرجال لان ما عندها من العسكر كاف لمحاربة اية دولة عظيمة إذا وجد المال الكافي لتجهيزه . ثم رأيت بعد أسابيع من آخر خطبة ألقتها في ذلك بعض الجرائد المصرية تقول مثل هذا القول الواضح لكل عارف بالحقيقة

(٩) بيان التفاوت بين الشعوب والملل في البلاد العثمانية في العلوم والمعارف والاستعداد للقيام بأعمال الحكومة والكسب والاستطراد من ذلك الى أن العرب أشد تقصيرا في ذلك من الترك والارمن والارناؤط كما ان المسلمين من العرب أشد تقصيرا من النصارى ، وفت الأذهان الى مضرة هذا التفاوت اذا طال أمره لان الوحدة العثمانية لا تتحقق الا باتفاق جميع الشعوب والفرق التي تتكون منها الأمة العثمانية واشتراكها في الاعمال التي تصلح بها الدولة وتعمر بلادها ، وهذا الاتفاق والائتام من نتائج التقارب في التربية والتعليم ، فلا بد من عناية العرب عامة والمسلمين منهم خاصة بالتربية والتعليم بقصد مجاراة غيرهم من إخوانهم العثمانيين وتمكين رابطة الأتحاد بهم ومساواتهم في أعمال الحكومة ومجاراتهم في الاعمال الحرة والاساءات العاقبة وخيف ان تساعد أوربا في المستقبل كل جنس على الاستقلال وتجعل العرب تحت سيطرتها لعدم استعدادهم لتكوين حكومة مدنية

(١٠) تكريم الشعب وتثنيها الى انه أهل لكل مكرمة وكل خير ، وان العامي إذا اتقى الله فاجتنب الشرور والمعاصي ولزم الطاعة ورجب في الخير والبر فانه يكون خيرا وأفضل من كثير من المعلمين الذين لا يستعملون علمهم الا لجر المنافع الى أنفسهم ولو بالباطل ، وان الفقير القانع الصالح أفضل من الغني الذي لا يفتح الأمة بنائه ، ولا يقف في الكسب عند حدود الله ، وان كثير من الفقراء

يمكنهم ان يبدلوا شيئاً قليلاً من الصدقة على قدر حالهم للجمعيات الخيرية وبذلك يعدون من خدمة الأمة ونحو ذلك

هذه هي المقاصد التي كان يدور عليها كلامي وكان يفهمها المتعلم والعامي :
هذا يفهم فهمها اجالياً ، وذلك يفهم فهماً تفصيلياً ، وقد رضيتها وأثني عليها جميع من لقيت من العلماء والأدباء وظهر لها أثر حسن في اندهامها ، لما عليه أهل بلادنا من الذكاء ، وقد سألت أكثر من واحد من أهل العالم الذين سمعوا الخطب والدروس الدينية التي كنت ألقها في المساجد : هل انتقدتم عليّ شيئاً فاتقي العود إلى مثله ؟ فيقولون ما يقول أهل الفضل في هذا المقام اذا كان ماسمعوا مستحسننا عندهم غير متقد .
ذكرت هذه الكلمة تمهيداً لما يأتي

حادثة الشام

ذكرت جريدة الاتحاد العماني خبر تلك الحادثة ولم تخطيء إلا في قولها اني سافرت من الشام ليلاً والصواب اني صليت الفجر فيها وسافرت في القطار الذي يخرج منها بعد مطلع الشمس . وقد علم القراء ان ذلك الرجل الذي قطع عليّ الدرس قبل اتمامه لم يدع في مجلس الدرس اني قلت شيئاً وأخطأت فيه وانما تكلم كلاماً مستقلاً في مسألتين لم أتعرض لهما في ذلك الدرس ولا في غيره من دروسي في بر الشام باثبات ولا نفي وهما مسألة تقليد الأئمة الأربعة واعتقاد فضلهم وهدايتهم ومسألة زيارة القبور واحترام الصالحين والتوسل بهم . وقد كان صاحب الفضيلة مفتي الشام حاضراً ذلك المجلس فأيّاه اسأل دون أولئك الأثوف التي كانت حاضرة الدرس : هل سمع مني كلمة مخالفة للشرع ؟ ان كان سمع شيئاً مخالفاً فاذكره بالميثاق الذي أخذته الله على الذين أوتوا الكتاب « لينبئنه للناس ولا يكتمونه » ان يبين لي ذلك في كتاب خاص يبعث به إليّ وأنا أنشره في المنار وغيره مع بيان ما عندي فيه ، أو في رسالة ينشرها في بعض الصحف ليظهر الحق لطالبه ولا يخوض الناس في الباطل بغير علم . وسأكتب اليه كتاباً خاصاً أسأله فيه هذا البيان وهو أعلم بما ورد في الكتاب العزيز والأحاديث الشريفة في عيد كآبي العلم

كشف شبهتين او ثلاث

إذا كنت لم تعرض لذكر زيارة القبور والتوسل بالأموات الصالحين في شيء من كلامي في بلاد الشام فقد اشتهر عني اني كتبت كثيرا في انكار البدع المتعلقة بذلك . واذا لم أكن قد تعرضت هنا لذكر الاجتهاد والتقليد فقد علم الكثيرون اني كتبت بذلك كثيرا . وكنت أعرض كل ما أكتبه ولا أزال أعرضه لقد العلماء وأنشر كل ما يرد علي منهم في ذلك ولا تتسع هذه الجريدة لذكر شيء من ذلك وإنما أريد هنا كشف شبهتين خاض فيها بعض الناس بسوءنية وبعضهم باخلاص وحسن قصد ولكن مع سوء فهم أو تصديق للكاذبين الذين يشمون عنا الاباطيل حتى زعموا اننا ننكر وجود الملائكة وجودا مستقلا

الأولى : أشيع عني اني أطالب كل مسلم بان يكون مجتهدا مثل الأئمة رضوان الله عليهم ! وربما تطرف من يستبيح الكذب لأرضاء هواه فزعم اني أظن في الأئمة المجتهدين ! . وأقول في الجواب عن هذه الشبهة انه لا يطالب الناس بمثل ما ذكر إلا من كان لا يعقل ان هذا من طلب المحال لقصور استعداد أكثر الناس عن ذلك أو عدم تفرغهم له . ومن فهم اني أعني هذا بالترغيب في الاهتمام بالكتاب والسنة فهو محطى . فائما أعني به ان وعظ الناس وتذكيرهم بالكتاب والسنة هو الذي يؤثر في قلوبهم ويعث روح الدين في نفوسهم ، وأطالب المشتغلين بالعلم ان يعنوا بهمهما ويذكروا العامة بهما ، سواء منهم من تفرغ للدرس كتب المذاهب كعض طلاب العلم ومن لم يتفرغ له كأكثر العامة . ومسألة النهي عن التقليد مسألة أخرى يراء بها فهم كل قول بدليله لا ان يكون كل مشتغل بالعلم قادرا على تدوين مذهب !! . وهذا ما أعنيه بالأصلاح الديني وملخصه ان يعنى المشتغلون بعلم الدين بفهم الكتاب والسنة بقدر الاستطاعة وفهم كلام الأئمة بدليله وان يبذلوا جهودهم بإرشاد العامة بها كما تقدم . وهذا هو عين اتباع الأئمة وقد ورد عنهم نصوص كثيرة مصرحة به وهو غير التقليد الذي نهوا عنه

الثانية : اني لم أنكر زيارة القبور وإنما أنكر دائما ما يكون ضد ذيلاتها من

البدع التي لم تكن على عهد السلف الصالحين ، ولم يقل بمشروعيتها أحد من الأئمة المجتهدين ، وأقول ان حب الصالحين والاولياء المقربين من الاحياء والميتين انما ينفع ويكون وسيلة الى الله عز وجل إذا أفاد صاحبه التشبه بهم في خشية الله وهواه وترك المعاصي والعمل الصالح مع الايمان الصحيح والا كان غرورا . ومن الغرور الذي يمنعه الاسلام دعاء أصحاب القبور بما لا يطلب إلا من الله واعتقاد انهم يستجيبون لن دعاهم ، وان لهم سلطة غيبية وراء الاسباب والسنن الالهية ينفعون بها وينصرون ، ويعطون ويمنعون ، فهذا الاعتقاد عبادة باطلة وان سميت توسلا فان الأسماء لا تغير الحقائق

وما يتعلق بهذه المسألة بمبحث الكرامات والتي لم أنكر جواز الكرامات ولا وقوعها ولكن بينت انها لا تكون مخالفة لسنن الله تعالى في خلقه بتغيير او تبديل أو تحويل لان الله تعالى أخبر بان سننه لا تبدل ولا تتحول . وانها لا تكون معادة كأنها صنعة بيد الولي ؛ بل قال في الفتوحات انها لا تتكرر فان المكرر يكون معادا لا خارقا للمادة وغير ذلك من الاغلاط التي لا دليل عليها في الشرع ولا العقل . وحدثت عوام الأئمة من الدجالين المحتالين الذين يدخلون عليها التليس من هذا الباب . فن أراد أن يقف على التفصيل في ذلك ، فليراجع المجلد الثاني والمجلد السادس من المنار ففيها بضع عشرة مقالة مطولة في الكرامات . ومن يدعي ار شيئا من كلامنا الجميل هنا والمفصل هناك مخالف للشرع فعليه أن يكتب لينادعواه مؤيدة بالدليل لنشرها له والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

محمد رشيد رضا